الأمثولة الوعظية
في كتاب "الفرج بعد الشدة" للتنوخي

دكتورة/ منى عبدالله منصور المطرفي
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية (تخصص الأدب والنقد)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الباحة

الملخص:

تتعرض هذه الدراسة لتحليل نص "الأمثولة الوعظية في كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي" باستخدام الأدوات التداولية؛ بهدف الكشف عن قدرة النص الأدبي في إنجــاح عملية التواصل، وتوضيح أن النظرة الكلية للنص أجدى في دراسته من التركيز علـــى بعض أجزائه، وقد ظهر من هذه المحاولة قدرة التحليل التداولي علـــى تعميـــق تأويـــل النص من خلال التعامل الكلي معه.

الكلمات المفتاحية: الأمثولات الوعظية، التنوخي، التداولية، أفعال الكلام، القرن الرابـــع الهجري.

Abstract:

This study analyzes the text of the Preaching Example in the Book of Al-Faraj Ba'd Al-Shidah for Al-Tanoukhi, using the pragmatic tools to reveal the literal text ability in introducing communication process as well as clarifying that the overall look to the text is more useful in studying it than focusing on parts thereof. This research reveals the pragmatic ability to deepen text interpretation though dealing with it comprehensively.

Keywords: Preaching Examples – Al-Tanoukhi – Pragmatism – Acts of Speech – ٤th Hijri century.

المقدمة:

لقد تعرض النص الأدبي للكثير من المناهج في محاولة لاستنطاق خفاياه؛ فمنها ما ربط النص بمؤلفه على الصعيد الاجتماعي والنفسي، ومنها ما ربط النص بدواخله ففككه وحلل بنيته، ومنها ما ربط النص بمجتمعه ومتلقيه، وكل هذه المناهج كانت قادرة على أن تكشف عن قدر معين من معاني النص يرتبط بزاوية إطلالتها على النص . إلا أنه مع تطور الدراسات الأدبية وبالأخص التداولية، وارتباطها بتحليل الخطاب، والتركيز على أفعال الكلام يمكن إظهار أكثر من جانب لمعنى النص، فنظرية " أفعال الكلام " تدرس فعل القول أي إنها تنظر داخل النص، وتدرس الفعل المتضمن في القول؛ أي الفعل الإنجازي الذي يحدد مقاصد القول، وأخيرًا تدرس الفعل الناتج عن القول، أي أثره أو وظيفته التي يؤديها في وجدان المتلقي، وهكذا نرى هذه النظرية تحاول أن تحيط بالنص من جهات ثلاث؛ للكشف عن معناه، وعن قدرته على أداء مهمة التواصل التي تكون بين المرسل والمستقبل. وهذا هو محور الدراسة الكشف عن قدرة النص الأدبي في إنجاح عملية التواصل، وقد اخترت الأمثولة الوعظية في كتاب "الفرج بعد الشدة " نموذجًا لذلك ؛ لأنها نص أدبي استُخدِمَ في غير مقامه. فالعملية التواصلية التي أقيمت بين المؤلف والمتلقي كان الهدف منها الوعظ، وأقرب الخطابات الأدبية لهذا المقام هي الوصايا والخطب الوعظية، إلا أن مؤلف الكتاب لم يكتف بهذا في كتابه، وإنما كانت "الأمثولة الوعظية" صاحبة الحظ الأوفر حضورًا في الكتاب، فلماذا اختارها المؤلف وركز على استخدامها أكثر من غيرها؟ وهل استطاعت الأمثولة أن تؤدي الفعل الإنجازي الذي يريده المؤلف؟ وهل أدت الوظيفة المرادة منها عند المتلقي؟

هذه الأسئلة جعلت الدراسة تدور حول ثلاثة مباحث وهي :

المبحث الأول : خطاب الأمثولة الوعظية

المبحث الثاني : مقاصد الأمثولة الوعظية

المبحث الثالث : وظائف الأمثولة الوعظية ،ثم خاتمة تحوي نتائج الدراسة.

وستُعالجُ هذه المحاور باستخدام الأداة التداولية وتطبيق نظرية " أفعال الكلام "؛ لقدرتها على دراسة النص من أكثر من جانب كما ذُكر سابقًا، وقد واتتني هذه الفكرة بعد اطلاعي على المراجع التالية :

- السرد في أدب القاضي التنوخي، محمد محمود حرب، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، نيسان ٢٠١١.
- أشكال السرد في القرن الرابع الهجري كتاب "الفرج بعد الشدة" أنموذجًا، مصطفى عطية جمعة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، مصر،٢٠٠٦م
- المحسِّن التنوخي، حياته ودراسة تحليلية لآثاره، سلوى عبد الفتاح درويش، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤.

هذه الدراسات ركزت على تحليل عناصر السرد في كتب القاضي الثلاثة، التي اكتفت بدراسة عناصر النص من داخل النص، وهذا يختلف عن منحى هذه الدراسة التي تحاول أن تدرس النص بالنظر إليه من عدة زوايا، وهي خطاب النص وقائله وقارئه. ولعل مثل هذا العمل يقدم شمولية أكثر في الكشف عن أسرار النصوص الأدبية، وعن قدرته في إنجاح عملية التواصل، وحسبي بذل الجهد للخروج برؤية جيدة لتفسير النص الأدبي وتحليله.

المبحث الأول: خطاب الأمثولة الوعظية

الأمثولة لفظ مأخوذة من مادة (م ث ل)، وأصل معانيها في اللسان تدور حول التسوية والشَّبْه، يُقال مِثْلُ ومَثَلُ شِبْهٌ وشَبَهٌ بمعنى واحد، والْمَثَلُ: الحديث نفسُه وتَّمثَّل فلان إذا أنشد بيتًا ثم آخر ثم آخر، والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلًا، وقد يكون الْمَثَلُ بمعنى العبرة؛ ومنه قوله عز وجل: {فَجَعَلْنَهُمْ سَلَفَاً وَمَثَلاً لِلأَخِرِينَ}[سورة الزخرف، الآية:٢٥]؛ فمعنى السَّلَفِ أنا جعلناهم متقدِّمين يَتَّعِظُ بهم الغابِرُون، ومعنى قوله ومثلًا أي عِبْرة يعتبر بها المتأخرون(١).

أما اصطلاحًا فالمثل "يراد به التشبيه وما يتصل به من تمثيل"(٢)، و "الحكاية المثلية قصة موجزة ذات بنية سردية بسيطة،......، وسواء أكان أبطالها من الحيوانات أم من البشر فإن صفات هؤلاء الأبطال تتميز بالثبات،......، ثم إن هذه الحكايات تستهل غالبًا أو تردف بجهاز حجاجيّ يضبط لها مقصدًا أخلاقيًا واضحًا. فمن أهم ما يميز الحكاية المثلية أنها قائمة على ثنائية السرد والاعتبار"(٣)، وعلى هذا فالمثل نص يستخدم في مواقف مشابهة للموقف الذي نشأ فيه؛ لإيصال رسالة، أو نقل فكرة ما من القائل إلى المتلقي.

أما الوعظ فهو في لسان العرب النصح والتذكير بالعواقب قال ابن سيده: هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّنُ قلبه من ثواب وعقاب (٤).

ومن هنا انطبقت تسمية الأمثولة الوعظية على ما ساقه التنوخي من أخبار في كتابه « الفرج بعد الشدة»، وقد رأيت أن استخدام «الأمثولة» بدلًا من المثل أنسبُ؛ لأن الدراسة تركز على الخبر الذي يحتوي بنية سردية قصصية فبالتالي هو أمثولة وعظية اختارها التنوخي؛ «لقدرتها وبراعتها وإمكانياتها التشبيهية والتعبيرية المحسوسة والعملية في التأثير والإقناع» (٥).

(١) راجع ابن منظور، لسان العرب، مادة (مثل). و أ.د.العادل خضر،الأدب عند العرب سننه ووظائفه ومؤسساته مقاربة وسائطية، ص ٤٧٥-٤٨٥.

(٢) د.أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، ج٢، ص٢٤٧.

(٣) أ.د.محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص١٥٦.

(٤) راجع ابن منظور، لسان العرب، مادة (وعظ).

(٥) محمد رجب النجار، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية فنونه – مدارسه – أعلامه، ص٤١.

فالنص الأدبي بصفة عامة « يجدد مدارك القارئ، ويقوي منسوب معارفه، مما يستتبعه بالضرورة وعيٌ بالعالم في امتداداته المختلفة» [١]، والنص القصصي بصفة خاصة نصٌ حجاجي يتسرب إلى وجدان المتلقي ليقنعه دون قوة بمضامينه وما يترتب عليها ويتبعها من نتائج، والعرب منذ القِدَم أدركوا هذه القدرة للقصص فاعتمدوا عليها لتمرير الأفكار والمفاهيم إلى ذهن المتلقي، ثم جاء النص القرآني واعتمد في كثير من المواضع- أثناء خطابه للعرب- على القصص مرسخًا قدرة هذا البناء بتقنياته الخطابية على إثارة استجابة المتلقي أو تعزيزها للقضايا التي تُقدَّم له من خلال النص القصصي.

لهذا اختار التنوخي أن يكون أحد خطاباته في كتاب «الفرج بعد الشدة» الأمثولة الوعظية، فهو يستخدمها كوسيلة لغوية يحقق من خلالها مقاصده التي يروم تحقيقها من خلال تأليفه لهذا الكتاب.

وحتى ينجز هذا الفعل كان عليه أن يبني في ذهنه محاورًا فعليًا يكون بمثابة ممثلًا للفئة الاجتماعية التي يُريد التنوخي مخاطبتها، فالكُتَّاب القُدماء يولّدون قراءهم الخاصين، ويبنون تفاعلهم معهم على فلسفة التحفيز الضمني لاكتشاف النص المكتوب[٢]، وهذا قد يفسر كذلك ميل التنوخي نحو الأمثولة الوعظية، فبالرغم من كون مقام الخطاب بينه وبين المتلقي مقاماً وعظيًا الأصل فيه استخدام الأساليب الإنشائية في قوالب الخطب والوصايا إلاَّ أن التنوخي آثر استخدام الأمثولة الوعظية مستغلاً قدرتها الفنية على إيصال أكثر مما يُقال فيها كما وضع التنوخي أمثولاته في قالب الخبر الأدبي الذي يقوم على عنصرين رئيسين هما: السند، والمتن، فما هي ميزة هذا الاختيار؟ وكيف استغل التنوخي إمكانيات خطاب الخبر الأدبي لينقل مقاصده إلى قارئه؟

للإجابة على هذا السؤال نحدد أولاً المستوى الذي سنهتم به في دراسة خطاب النص الأدبي وهو المستوى الكلي للخطاب؛ أي تحليل خطاب النص سيكون لعناصره الكلية، وليس تفاصيله الجزئية مثل التركيب النحوي أو اللغوي، أو الأسلوبي، بل كنص متكامل من جمل مترابطة في انسجام في فقرات متماسكة لها معنى يُفهم بكلية النص،

(١) عبد الرحمن التمارة، النص السرد التراثي بين الإنتاج والتلقي جدلية التفاعل، من أعمال المؤتمر الدولي الرابع بعنوان "النص بين الإنتاج والتلقي"، ص٣١٦.

(٢) المصدر السابق.

وذلك لأن الدراسة تأخذ التداولية بمعنى الاستعمال؛ أي دراسة النص في سيرورته وانتقاله وتحوله واستعماله(١) من خلال القالب الذي وضع فيه.

فمن خلال تحليل خصائص العنصرين الرئيسين للخبر الأدبي الذي سيقت فيه الأمثولة الوعظية تظهر مميزات خطاب هذا القالب عن غيره من القوالب الأدبية الأخرى.

أما العنصر الأول للخبر الأدبي فهو السند ومفهومه قائم على أن الإسناد «عملية يقوم بها الراوي تتمثل في إنشاء خيط واصل بينه وبين مصدر الخبر، وهذا الخيط هو السند»(٢). إذًا المهمة الأولى للسند عند حضوره هو توضيح المسار الذي سار فيه متن الخبر منذ حدوثه حتى وصوله إلى الراوي الأخير، ولكن هذه الوظيفة التوثيقية للسند كانت فاعلة في بداية الحاجة لها حينما كان التناقل شفهيًا، وبعد أن استقر الحال بالعرب وبدأ عصر التدوين أضيفت لهذه الوظيفة وظائف أخرى تتشكل بحسب الموقف والسياق٣.

وقد استغل التنوخي الوظيفة التوثيقية بالتزامه بذكر السند في أغلب الأمثولات التي أوردها في كتابه، مع أن كتابه خرج في فترة استقرت فيها الكتابة وحفظت جُل المرويات في الكتب، بدليل أن بعضًا من الأخبار التي ذكرها التنوخي منقولة عن كُتُبٍ سابقةٍ، ويشير التنوخي إلى ذلك في حينها، ليستغل دور السند التوثيقي الذي يجعل القارئ يطمئن لمصداقية المتن من خلال التزام التنوخي بطرق الأداء التي وصل بها المتن إليه، فانتقال المتن من راوٍ إلى راوٍ آخر يتم عبر ما يسمى بالتحمل، وله طرق أداء وهي عبارات يتلفظ بها الراوي ليحدد الطريقة والمكان الذي استقبل فيه المتن ممن قبله، فعندما يقول التنوخي: «حدثني القاضي أبو الحسن محمَّد بن عبدالواحد الهاشمي، قال: سمعت: العبَّاس بن عمرو الغنوي، يقول: »(٤).

نعلم أن الخبر انتقل من القاضي أبو الحسن محمد بن عبدالواحد إلى التنوخي في محادثة مباشرة بينهما، وأن المتن انتقل من العبَّاس بن عمرو إلى القاضي أبو الحسن محمد بن عبدالواحد سماعًا، أي أنه سمعه منه في مجلس دون أن يكون أبو الحسن

(١) مناهج تحليل النص السردي، محمد معتصم، ص ١٩-٢٠.

(٢) أ.د. محمد القاضي،الخبر في الأدب العربي، ص٢٢٧.

(٣) تحدث أ.د. محمد القاضي عن هذه الوظائف بإسهاب في كتاب الخبر في الأدب العربي، ص٣٢٦ - ص٣٤٨.

(٤) القاضي التنوخي،الفرج بعد الشدة،ج١، ص٢٦٣.

المخاطب بالمتن مباشرة، فعبارتي «حدثني» و «سمعت» ملفوظ يحدد مقام وظروف انتقال المتن من راوٍ لآخر، وهكذا لكل عبارة من عبارات الأداء دلالاتها التي تعارف العرب على خصائصها. وكذلك كان لتحمل الخبر مراتب تختلف فيما بينها في درجة القوة والمصداقية، ولكل مرتبة عبارة تدل عليها وتحددها، أعلى هذه المراتب هي السماع أي التواصل المباشر بين الناقل والمنقول إليه وأدناها الوجادة. وألفاظ السماع أقواها التحديث والإخبار؛ لأن الخطاب يكون فيها موجهًا بشكل مباشر من الناقل إلى المنقول إليه، وهذا يمنح السند ومتنه المصداقية والواقعية ويولد لدى القارئ الثقة في ذلك المتن، ومن حمله من رجال الإسناد(١).

ولهذا كان التنوخي يرى السند أداة فعَّالة في توليد الثقة لدى القارئ، فكان محافظًا على ذكر سند المتن الذي يورده كأمثولة وعظية بين يدي القارئ، حتى أننا نجده يذكر سندًا لخبر متنه مخترعٌ وخياليٌ حيث يخبر التنوخي عن الحية التي استجارت برجل عابد من رجل يريد قتلها وقد أجارها العابد حتى انصرف عنها الخطر، وقامت لتقتل العابد بعد إجارته لها، ثم إن الله خلصه منها بحسن عبادته لله(٢).

هذا المتن يرويه التنوخي بأكثر من سند، أحدهم اكتفى فيه بعبارة «يُروى»، والثاني كان سنده «وروي هذا الخبر جعفر العابد برامهرمز» أما السند الأخير فنصه «وحدثني عبدالله بن الحارث بن السراج الواسطي، قال» فمتن الخبر حدث مستحيل الوقوع حقيقة، ولا يمكن أن نقول عن وظيفة السند هنا أنها توثيقية، فلماذا يلجأ التنوخي إلى إدراج أمثولته الوعظية في هذا الخطاب ؟؟ وما وظيفة السند التي يؤديها في هذا الحال؟؟

إن وظيفة السند هنا تتحول من دورها التوثيقي إلى دورها الخفي، فالسند بعد أن استقرت الكتابة تحول من كونه أداة للتوثيق إلى كونه سنة أدبية فنية في يد الراوي تلعب دور الإيهام بالواقع ليبين المؤلف أنه لم يخترع الخبر، بل إن رجال ثقات يضطلعون بمصداقيته ليس لحقيقة وقوعه فقط؛ وإنما لصدق مضامينه ودلالاته، وهذا مما يجعل القارئ قريبًا من تقبل هذا المضمون، مستسلمًا لما يُحْدِثُهُ في وجدانه من تحفيز، وفي عقله من إقناع،

(١) للاستزادة راجع: أ.د. محمد القاضي،الخبر في الأدب العربي، ص٢٣١ وما بعدها.

(٢) القاضي التنوخي،الفرج بعد الشدة،ج١، ص١١١-١١٤.

فالسند بهذا التقبل من القارئ يؤدي وظيفة جمالية، تهيئ القارئ لينخرط في فعل السرد أولًا ،وتعينه على الاستجابة لمضمون السرد ثانيًا.

العنصر الآخر من عناصر تكوين خطاب الخبر الأدبي هو المتن، وهو النص الذي يقدمه الراوي الأول بعد سلسلة السند، وهذا المتن في الأمثولة الوعظية كما جاء في تعريفها سابقًا: هو قصة موجزة ذات بنية سردية بسيطة، يكون الفعل فيها عبارة عن تحول من حال إلى حال، أو تعرض الشخصية لاضطراب يحدث اختلالًا في توازنها، ثم تكون قوة أخرى في اتجاه مضاد تعيد الشخصية إلى توازن مشابه للتوازن السابق(١).

وهذا مدار البنية السردية في أمثولات التنوخي فخطاب الأمثولة دائمًا يتحدث عن شخصية تتعرض لأزمة بعد أن عاشت في أمان، ثم تعاني من جراء هذه الأزمة، وتبحث عن حل، ثم يأتي الفرج – وله عدة أشكال في أمثولات التنوخي – فيكون بعده النجاة والاستقرار لتلك الشخصية. والبحث الآن ليس مداره على أنواع الأحداث أو مجرياتها ولا أشخاصها وفضاءاتها؛ لأن الخوض في هذا الحديث طويل جدًا، لكن السؤال الذي يلوح الآن طرحه على خطاب الأمثولة هو: هل التنوخي عندما يورد الأمثولة يريد الاعتبار بما فيها من أفعال، أم بمن فيها من شخصيات؟

للإجابة على هذا السؤال نستعرض أنواع الأفعال الأغلب حضورًا في «الفرج»وهي في الغالب مرتبطة بالسلطة القَدَرية أولًا؛ أي أن القوة المضادة في أحداث القصة تكون قوة قدرية خارجة عن إرادة البشر، وترتبط ثانيًا بالسلطة السياسية، كغضب السلطان أو الحاكم أو ما شابه ذلك، أما ثالثًا فهي ترتبط بالسلطة المجتمعية كالتعرض للصوص أو القتل، وأخيرًا ترتبط تلك الأفعال بالسلطة العاطفية والنفسية من مثل الابتلاء بالحب وما شابهه.

فكل ما سبق عبارة عن أشكال الأزمات التي تواجهها الشخصية في البنية السردية لمتن الأمثولة، ثم تتشكل ردة فعل الشخصية وتفاعلها من خلال تتابع أحداث القصة حتى تخرج من هذه الأزمة بفرج يعيد التوازن لها.

فهل الذي يخدم التنوخي في تحقيق مقاصده من الأمثولة هو نوع الأزمة؟ أم طريقة تعاطي الشخصية مع الأزمة ؟ ولتوضيح هذا الأمر نأخذ أمثولة نموذجًا للإجابة

(١) راجع: د. الصادق قسومة،علم السرد المحتوى والخطاب والدلالة، ص١٦٠.

على هذا التساؤل، فالتنوخي يسرد خبرًا مرويًا عبر سلسلة رواة عن محمد بن سلام، أن عبيدة بن عبد الرحمن والي الأردن من قبل الوليد بن عبد الملك قد عزله عن ولايتها، وضربه، وحلق رأسه ولحيته، وأمر الموكلين به أن يقبضوا على كل من يأتي لمواساته، فأتاه الشاعر عدي بن الرقاع العاملي – وكان عبيدة محسنًا له-يواسيه بأبيات شعرية، متحديًا تحذيرات الوليد، فأخذه الحرس للوليد الذي غضب منه وعاتبه، إلا أنه عفا عنه وعن عبيدة عندما أخبره عدي بالإحسان الذي بينهما، فكيف يكافئه إذا لم يكن مع عبيدة مواسيًا في مثل هذا الحال؟[1].

إحسان قديم يدفع بمروءة عدي لتحدي قوة الوليد بأبيات شعرية، قدمها عدي مواساة لصديقه؛ لأنه يعلم مدى تأثير النص الشعري على المتلقي، ثم يواجه غضب الوليد باستفهام واحد "ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم؟" سؤال يقلب الميزان، فإذا بالوليد بن عبدالملك يتحول من غضبه إلى احترام الصديقين واحترام التضحية بينهما، وإذا بعبيدة وعدي يتحولان من مغضوبٍ عليهما إلى مكرَمَيْن قد استردا حريتهما، فقوة الاستفهام التقريري لعبت دورًا في إعادة التوازن للأحداث، ما الذي استوجب طرح هذا الاستفهام إنه الإحسان القديم بين عبيدة وعدي.

وعلى هذا المنوال تسير غالبية الأمثولات الوعظية حيث تتعرض الشخصية لأزمة ثم يكون بعدها فرج، السبب فيه غالباً عمل صالح تقوم به الشخصية المنكوبة، فهو إما دعاء، أو قراءة قرآن، أو صدقة، أو صنائع معروف. إذن ما يخدم التنوخي في تحقيق مقاصده هو طريقة تفاعل الشخصية مع الأزمة؛ لأنه بهذا التركيز يوحي للمتلقي بالسلوك الناجح في حل الأزمات، لهذا ينوع التنوخي أشكال الأزمات لكنه يوحد السلوك الناجح لحلها في صورة العمل الصالح، وللتنوخي في هذا الأمر مقاصد يرومها سيكون الحديث عنها في المبحث التالي، الذي يدور حول مقاصد الأمثولة الوعظية.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، المجلد٢، ج٣، ص٧٢.

المبحث الثاني: مقاصد الأمثولة الوعظية

إن النص الأدبي ما هو إلاّ فعل لغوي إنجازي تأثيري، يعمل خطابه على بناء التواصل بين المرسل والمتلقي؛ لنقل الأفكار والمقاصد بينهما،فلغة النص الأدبي لا توظف بشكل عشوائي وفوضوي، بل تزخر تلك اللغة بمجموعة من الدلالات السياقية والتداولية والحجاجية إقناعاً وتأثيراً[١]، وحتى نُخْرِجُ النص الأدبي عن حدوده الداخلية ونحاول الكشف عن مقاصده، لابد من إدراجه أولاً: في سياقه النصي في داخل الكتاب؛ لأن الأمثولة الوعظية كانت جزءًا من خطاب كلي عند التنوخي. ثانياً: إدراج الأمثولة الوعظية وكتاب "الفرج بعد الشدة" ككل ضمن السياق الثقافي والاجتماعي الذي أنتج فيه، هذا سيساعد في فك شفرات النص والكشف عن ما وراءه من مقاصد يروم المرسل تحقيقها في ذهن المتلقي.

فأولاً السياق النصي الذي بناه المؤلف بينه وبين القارئ ويتمثل في عنوان الكتاب، ومقدمته، ومفاصله العامة أي أبوابه وفصوله، فوجود مثل هذه المحددات تهيئ القارئ للانخراط في فعل التواصل مع المؤلف، وتحدد كيفيات التخاطب بينهما، كما أنها تمثل عقدًا يُنَظِّم الاستراتيجيات الخطابية بين المؤلف والقارئ ،كذلك تعبر عن مقاصد المؤلف التي يروم التمهيد لها لتحقيقها في ذهن المتلقي، فالمؤلف يحاول من خلال تنظيم هذا السياق توقع حركة المتلقي الذهنية، ويخمن ردة فعله ويضعها في حسبانه، ويتحرك من أجل تحقيق ما يتناسب مع التجاوب المحتمل من هذا المتلقي، ومن هنا ارتبط إنتاج النص بمصيره التأويلي ارتباطاً لازماً[٢]، ومن خلال النظر في مقدمة كتاب «الفرج بعد الشدة» وأبوابه تظهر مقاصد المؤلف من وضع هذا الكتاب واستخدام الأمثولة الوعظية فيه.

وتبدأ مقدمة الكتاب بالحمد له والتصلية وهذا ما جرت به عادة التأليف في ذلك الزمان، وفي هذا إشارة من المؤلف بأنه منخرط في السياق العام الذي جرت عليه أعراف التواصل الكتابي بين المؤلف والقارئ، ومن جهة أخرى بدء الكتاب بالحمد له والتصلية يحث ذهن القارئ على التهيؤ لبدء التواصل مع المؤلف.

---

(١) انظر: جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ص١١.

(٢) انظر: د. عبدالله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ج١، ص١٦

بعد ذلك يقول التنوخي: «فإني لمَّا رأيتُ أبناء الدنيا متقلبين فيها بين خير وشرّ، ونفع وضرّ، ولم أَر لهم في أيام الرخاء أنفع من الشكر والثناء، ولا في أيام البلاء أنجع من الصبر والدعاء؛ لأن من جعل الله عمرَه أطول من عمر محنته فإنه سيكشفها عنه بتطوّله ورأفته»(١)، والتنوخي من خلال هذه العبارات يطرح المشكلة التي كانت سبباً في دفعه نحو تأليف هذا الكتاب، وهي تقلب أحوال الناس بين اليسر والعسر، وحتمية أن يمر المرء بكلا الحالين، ثم ينتقل من العام إلى الخاص وهو الحديث عن معايشة المرء لحال الشدة، يقول: «ووجدت أقوى ما يفزع إليه من أناخ الدهر بمكروه عليه قراءةُ الأخبار التي تُنبي عن تفضل الله عز وجل على ما حصل قبله في محصِّله، ونزل به مثل بلائه ومعضله،...» (٢)، فالتنوخي يرى أن أكثر ما يحتاج إليه المكروب هو قراءة أخبار السابقين الذين كتب الله لهم النجاة من شدائد مروا بها، وهو يعدد أشكالاً مختلفة لتلك النجاة؛ فقد يكون قدرًا أو معونة أو لطفًا غريبًا أو فرجًا عجيبًا، وهنا يعن لنا سؤال حول طبيعة خطاب التنوخي في هذا السياق، حيث أجمل في الحديث عن الشدة وفصّل في الحديث عن الفرج فلماذا؟

يريد التنوخي أن يوحي للقارئ بأن الشدائد كلها مهما اختلفت واحدة أيًّا كانت فإنها في النهاية أزمة سيواجهها المرء وتنقضي بفرج جعله التنوخي يأخذ عدة أشكال تتحد في كونها تتحقق بعد عمل صالح ولجوء إلى الله حتى يقوي إحساس الأمل في وجدان القارئ، يؤكد هذا ما بقي من حديث التنوخي حيث يقول بعد ذلك: «فإن في معرفة الممتحن بذلك شَحْذَ بصيرته في الصبر وتقوية عزيمته على التسليم إلى مالك كل أمر» إلى أن يقول:«وكثيراً إما إذا علم الله تعالى من وليّه وعبده انقطاع آماله – إلا من عنده – لم يكله إلى سعيه وجهده، ولم يرض له باحتماله وطوْقه، ولم يُخلِه من عنايته ورفقه»(٣).

ومما سبق يقدم التنوخي الداء وهو منطقية وقوع الشدائد، والدواء وهو الاطلاع على تجارب السابقين للتصبر والتوجه إلى الله والتسليم له فهو النجاة الحقيقية، ثم

---

(١) القاضي التنوخي،الفرج بعد الشدة،ج١، ص٤٠.

(٢) نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص٤١.

يعرض نواتج الدواء وهي أن الله لابد أن يلطف بمن انقطع أمله به، فيكون الفرج. هذا الجزء من المقدمة وضَّح الإطار العام للسياق الذي سيربط بين المؤلف والقارئ؛ وهو الحديث عن أشكال الفرج بعد الشدة بطريقة تُهيئ وتحفز القارئ لمتابعة فعل القراءة.

ثم بعد ذلك يحدد التنوخي انطلاقته في التواصل مع القارئ، بأنه جامع في هذا الكتاب أخباراً من النوعية التي تتحدث عن أشكال الفرج، وتشير إلى أن التصبر والتوجه إلى الله هو المخرج من كل شدة، والمقصد من ذلك قد أعلنه في قوله: «أرجو بها انشراح صدور ذوي الألباب، عندما يَدْهَمُهم من شدة ومصاب، وإذ كنتُ قد قاسيتُ من ذلك في محن دُفِعْتُ إليها ما يحنو بي على الممتحنين، ويحدوني على بذل الجهد في تفريج غموم المكروبين».

ثم إن التنوخي في هذه الوقفة التعاقدية في مقدمته مع القارئ يعدد ما وجده من مدونات تشابه في كينونتها ما ينوي تقديمه؛ وهي ما جمعه المدائني وابن أبي الدنيا والقاضي أبي الحسين عمر بن القاضي أبي عمر محمد بن يوسف القاضي، وناقش الفروق التي بينه وبينها؛ حيث رأى كتاب المدائني قليل المورد، مختصر القول، وكتاب ابن أبي الدنيا الغالب عليه أنه أحاديث عن النبي ﷺ وأخبار في الدعاء والصبر وما شابه ذلك، وقد رأى التنوخي أن كتاب ابن أبي الدنيا لا يصلح لأن يدخل في الحديث عن الفرج بعد الشدة، حديثاً القصد منه الاعتبار والتصبُّر؛ فهو خال من ذكر فرج بعد شدة، وهذا يوحي بأن التنوخي يقصد جمع أخبار تتحقق فيها ما يمكن تسميته «بالحركة الدرامية»؛ لأنها أقدر على حمل شحنات إقناعية، وبث حركة شعورية في وجدان القارئ.

كذلك يقصد التنوخي من مناقشة التجارب التأليفية السابقة في هذا الفن إلى استدراج القارئ للحديث عن ما يجعل كتابه أجدى وأفضل في هذا المجال، فيظهر في قوله: «فكان هذا من أسباب نشاطي لتأليف كتاب يحتوي من هذا الفن على أكثر ممَّا جمعه القومُ وأشرح وأبين للمغزى وأكشف وأوضح،....» (١)، التركيز على استخدام صيغة التفضيل (أفْعَل) القصد منها استمالة القارئ للاهتمام بالكتاب، والإقبال على قراءته دون غيره، وبذلك يفصح التنوخي حين يقول عن القارئ: «ليزداد من يقف على

(١) المصدر السابق، ص٤٢.

الكتب الأربعة بكتابي من بينها إعجاباً» [١]. إذا المقصد من بناء الكتاب وفق الشكل الذي أتى عليه هو أن يحوز على إعجاب القارئ، كما التزم التنوخي بأن يعزو ما أخذه من الكتب الثلاثة السابقة لصاحبه، ويلتزم كذلك بالأمانة والاستيثاق من الرواية، وتبيين ما يكون زائداً عن الأصل والتنبيه على موضع الفائدة. هذا ليولد في وجدان القارئ الثقة بما سيورده في كتابه، وحتى يعزز الثقة والطمأنينة في وجدان القارئ يعرض آلية تأليفه للكتاب، حيث استخار الله قبل أن يبدأ في الكتابة والتصنيف، وفي البوح بهذا الفعل استغلال لمكانة السنن الدينية في وجدان القارئ، فهو يعلم أن مثل هذا الفعل سيجعل القارئ أكثر ثقة وطمأنينة للمؤلف ولما سيدونه في كتابه. ثم يكشف التنوخي عن مقصده من تسمية الكتاب بهذا الاسم «تيمناً لقارئه بهذا الفال، وليستسعد في ابتدائه بهذا المقال» [٢].

ثم بعد ذلك يبدأ التنوخي في تقسيم أبواب الكتاب وهي:

- الباب الأول: ما أنبأ الله تعالى به في القرآن من ذكر الفرج بعد البؤس والامتحان.
- الباب الثاني: ما جاء في الآثار من ذكر الفرج بعد اللأواء، وما يتوصل به إلى كشف نازل الشدة والبلاء.
- الباب الثالث: من بُشر بفرح من نُطق فالٍ، ونجا من محنة بقول أو دعاء أو ابتهال.
- الباب الرابع: من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ، أو استوقف مكروهه بموقف بيان أو وعظ.

وهكذا يتابع التنوخي تنظيم أبوابه بحسب سلطة الشدة فبدأ بالسلطة الدينية، ثم السلطة السياسية، ثم السلطة المجتمعية، ثم السلطة النفسية، ثم يأتي بالباب الرابع عشر ويضمنه ما اختار من مُلَحِ الأشعار في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار، ومقصده من ذلك الإمعان في سرد الحجج، والتنويع فيها ما بين الخبر السردي والنص الشعري والمثل؛ حتى تقوى الحجة على القارئ ولا تترك لخواطر الشك مكاناً.

ثم إننا إذا طالعنا نصوص الأمثولات داخل الكتاب فإنها تدعم ما ظهر من مقاصد التنوخي في المقدمة؛ فمثلاً الخبر الذي ساقه عن ما وقع لأبي الحسن بن أبي

---

(١) نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص٤٣

طاهر محمد بن الحسن الكاتب الذي قبض عليه محمد بن القاسم بن عبيد الله في وزارته للخليفة الطاهر وعلى والده ظُلماً وحبسهم وعزم على قتلهم، فلجأ الوالد للتصبر على هذا البلاء بالصوم والصلاة والدعاء، حتى تفاجأ بإطلاق سراحهما، والقبض على محمد بن القاسم بدلاً عنهما(١).

فهذه الأمثولة تعيدنا إلى ما قد قاله التنوخي في مقدمته: «ووجدت أقوى ما يفزع إليه من أناخ الدهرُ بمكروه عليه قراءة الأخبار التي تنبي عن تفضل الله عز وجل على ما حصل قبله في مُحصِّلة، ونزل به مثل بلائه ومعضله..»، إلى قوله: «فإن في معرفة الممتحن بذلك شحذ بصيرته في الصبر، وتقوية عزيمته على التسليم إلى مالك كل أمر » (٢).

فالأحدوثة المذكورة هي مثلٌ على ما قد قصد التنوخي الهدف إليه في مقدمته، فكربة السجن والظلم قد استعان عليهما أبو الحسن ووالده بالصبر والصلاة، والدعاء والاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى حتى أتى الفرج كما وضحه التنوخي، كذلك في معرض ذلك القول من لطف غريب وفرج عجيب وإن خفيت أسبابه ولم يكن في حسبان المبتلى(٣).

وهكذا يساهم تحليل السياق النصي الذي وردت فيه الأمثولة في الكشف عن مقاصد التنوخي، فالمؤلف عندما يوضح لماذا وكيف كتب فإنه يساعد في الكشف عن ما وراء إنتاجه، ويمكِّن المتلقي من فتح أبواب معاني نصوصه.

ثانياً: السياق الثقافي والاجتماعي الذي خرج فيه كتاب «الفرج بعد الشدة» فقد كتبه التنوخي بعد معاصرته بعض الخلفاء والوزراء، وقد ذاق من نكباتهم، فطبيعة المحيط السياسي وتنافس الأقران فيه يجعلهم يكثرون من الإيقاع ببعضهم، وهذا كان الجزء الأكبر من الشدائد التي ذكرها التنوخي في كتابه.

ثم إن القرنين الثالث والرابع قد تصاعد فيهما الفساد السياسي لرجال الدولة، فكثرت مصادرات الأموال ونكبات الرجال من قادة الأمر ووزراء وكتاب وتجار

---

(١) انظر المصدر السابق،ج١، ص١٤٣-١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٤٠-٤١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وغيرهم[1]، وكان منهم التنوخي نفسه فقد جار عليه الوزراء أكثر من مرة، كان آخرها مظلمة المعتضد له، التي ألزمته داره حتى توفي.

فوجود مثل هذه المشكلات في المجتمع حرّي به أن يخلق ردة فعل تقاوم هذا الجور في صورة كتاب يساعد على التكيف مع مثل هذه الشدائد. وخطاب السرد في أخبار التنوخي خطاب مباشر واضح وبسيط، إلاّ أن وراءه مقاصد مختبئة تتجاوز مجرد الاعتبار، لتتغلغل في العقيدة والمجتمع فتعيد تشكيلهما، وتشكيل النفس والسلوك،كما تعمل على تقويمها، فالمحكوم لا يستطيع مجابهة الحاكم إلاّ برسائل تتصف بالمواربة لكي تمرر مقاصده دون أن تفصح عما يريد مباشرة، والتنوخي لا يريد من أخباره مجرد التصبر والاعتبار؛ وإنما يريد فضح فساد السلطة الحاكمة، وإظهار الجانب السلبي لها، وما يتولد عنه من تبعات تؤذي المجتمع؛ لهذا نجده في أغلب الشدائد التي يذكرها يجعل الجانب السلبي للسلطة الحاكمة، ويجعل الجانب الإيجابي أو الخلاص للقوة الأقوى من القوة الحاكمة وهي القوة الدينية أو الأخلاقية، فهذا يأتيه الفرج بعد دعاء دعا به، وذاك جزاء معروف صنعه، والآخر يأتيه الفرج لكونه حَسَنُ الخلق مع شخص ما، فالتنوخي يجعل مثل هذه القيم الحسنة أقوى من القيم السلبية التي انتشرت في ذلك الوقت؛ لعل القارئ والمجتمع يعيدان ترتيب قيمهما ونصب ميزان العدالة بينهم.

---

(١) انظر: شوقي ضيف، كتاب تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، ص٢٠، وما بعدها تصف بدقة التدهور السياسي والأمني في تلك الفترة.

المبحث الثالث: وظائف الأمثولة الوعظية

قد تقدم المبحث الثاني بتحديد مفهوم النص الأدبي في كونه فعلاً لغوياً إنجازياً تأثيرياً؛ أي أن النص الأدبي فعل منجز يؤدي وظيفة لدى المتلقي، وقد تحدث عن هذا جاكبسون حينما وضع نظرية التواصل، وحدد ستة عناصر للحدث اللغوي وهي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، وقناة الاتصال، والسياق، والسنن أو الشفرة. وبناءً على هذه العناصر قدم جاكبسون وظائف أساسية للغة ارتبطت كل وظيفة بعنصر من عناصر الحدث اللغوي، فإذا كان التركيز على المرسل فحينها تكون الوظيفة التعبيرية؛ لأن المرسل يبث من خلال عملية التواصل مشاعره ومواقفه، بينما إذا تركزت عملية التواصل على المرسل إليه فيكون حضور الوظيفية الندائية أو الإقناعية أقوى، وتكون الوظيفة المرجعية مرتبطة بالسياق الذي قامت فيه عملية التواصل، أما الوظيفية التنبيهية فهي ترتبط بقناة الاتصال التي تحدث من خلالها عملية التواصل بين المرسل والمرسل إليه، والوظيفة الشعرية تظهر عندما يكون نص الرسالة هو المقصود من عملية التواصل كما يحدث في النصوص الأدبية، وآخر هذه الوظائف التي عدها جاكبسون لعملية التواصل هي وظيفة ما وراء اللغة وتظهر عندما تكون اللغة نفسها مادة دراستها.

وهذه الوظائف تتحقق كلها تقريباً وتتشابك في عملية الكلام، وطغيان أحد هذه الوظائف يطبع المقولة بطابع معين، أو الهدف من عملية التواصل يجعل أحدها يبرز حضوراً أكثر من غيره[1]. كما يمكن لنوعية النص بعد ذلك أن تحقق وظائف أخرى فمثلاً النص القانوني له وظائفه، والنص الدستوري له وظائفه، والنص الأدبي الذي نحن بصدد دراسته له وظائفه، فنص الأمثولات الوعظية هو في أصله نص أدبي خبري وظيفته الرئيسة الإخبار والاعتبار، فهل توقفت أمثولات التنوخي عند هاتين الوظيفتين أم كانت هناك وظائف أخرى قد تتجلى عندما نركز البحث والنظر على المتلقي لهذه الأمثولات، وعلى السياق الثقافي والفكري والاجتماعي الذي كُتِب فيه كتاب "الفرج بعد الشدة"؟

لقد كان التنوخي يعي تماماً ماهية القارئ الذي يوجه خطابه إليه، فهو قارئ واعٍ مطلع جعل هذا القارئ التنوخي يتبع استراتيجية الانتقاء فيما سيكتبه، وقد وضع

(١) راجع: فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، ص٦٦-٦٨.

التنوخي ذلك في مقدمة الكتاب يقول: «فاقتصرت على كَتْب أحسن ما رويت من هذه الأخبار، وأصح ما بلغني من معانيها من الآثار، وأملح ما وجدت في فنونها من الأشعار»[1]. فما دفع بالتنوخي إلى اتخاذ هذه الاستراتيجية، في وضع كتابه إلاّ إدراكه بأن القارئ الذي سيطالع هذا الكتاب يستحق مثل هذا الاهتمام، فهو ليس قارئاً سطحي المعرفة ليركز التنوخي على الخطاب الانفعالي في التواصل معه، بل يحرص التنوخي على مخاطبته بالمستوى العلمي والثقافي الذي يتناسب معه، لأن كلاهما –المؤلف والقارئ– ينتمي إلى بيئة ثقافية عالية فالحقبة العباسية كانت حقبة ثرية علمياً من حيث التدوين والتأليف نتيجة التحول من التناقل الشفهي للمعلومات لحفظ الرواية إلى التناقل الكتابي بالتدوين والتأليف، مما جعل المجتمع في ذلك الوقت يتواطأ على استراتيجيات ومنهجيات تتماشى مع ذلك التحول.

وهنا نرى أن النظر للسياق الثقافي في ذلك العصر أظهر أن كتاب «الفرج بعد الشدة» يؤدي وظيفة علمية وثقافية تعزز القيم المعرفية للتناقل الكتابي، مثل وجود مقدمة للكتاب ومصداقية تلك المقدمة، ثم التزام التنوخي باستراتيجيات الانتقاء والتوثيق والتنظيم في بناء الكتاب، واتباعه لمنهجية واضحة ومنطقية في تنظيمه.

كذلك تواتر الأمثولات الوعظية وتنوعها يقوم بوظيفة فكرية، فالأمثولات حجج يطرحها التنوخي ليقنع المتلقي بمضامينها، وبالتالي هذه الأمثولات تغير الموقف العقلي والنفسي للمتلقي، وتقدم له تصوراً آخر للتعامل مع الأزمات التي شاعت في المجتمع ذلك الوقت.

كما أن هذه الأمثولات تعيد تشكيل القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية للمتلقي، ثم للمجتمع من بعده، فعلى صعيد القيم الاجتماعية والأخلاقية نرى التنوخي يروي خبراً ملخصه أن محمد بن يزداد وشي عند المأمون بعمرو بن بهنوى، فأمر المأمون الفضل بن مروان – وهو ناقل الخبر– بأن يسجن عمرو بن بهنوى ويشدد عليه حتى يؤدي المال الذي اختلسه من مال المأمون، لكن الفضل عندما حبس عمرو بن بهنوى أحسن إليه وأكرمه، فما كان من عمرو إلاَّ أن كتب كل ما يملك في قائمة ليقدمها الفضل للمأمون حتى تبرأ ذمته من مال المأمون، فراجعه الفضل في ذلك قائلاً: «مهلاً فإن

(١) الفرج بعد الشدة، ج١، ص٤٣

أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كله ونعمتك عن آخرها. فقال عمرو: إنه لكما وصفت في كرمه، ولكن السَّاعي لا ينام عني ولا عنك» (١).

فعمرو كان مدركاً أن أعداءه لن يدعوه ينجو، فتفاوض هو والفضل حتى اتفقا على أن يؤدي عمرو بن بهنوى نصف ماله، وكتبا رقعة بذلك، وعندما توجه الفضل إلى المأمون ليسلمه الرقعة وجد محمد بن يزداد وهو الساعي بالوشاية قد أبلغ المأمون عن الطريقة الحسنة التي يعامل الفضل بها عمرو، وهي عكس ما أمر به المأمون، ثم إن المأمون واجه الفضل بهذا الأمر، وحاول الفضل أن يبرر فعله ولم يتحدث عن الرقعة التي كتبها عمرو له، فما كان من المأمون إلاّ أن حول أمر عمرو بن بهنوى ليد محمد بن يزداد، الذي أنزل الشدة والعذاب على عمرو بن بهنوى، وما استطاع استخراج أكثر من ثلاثة آلاف ألف درهم،فقدمها محمد بن يزداد إلى المأمون، مما جعل المأمون يعاتب الفضل ويراه مقصراً في طاعته، هذا جعل الفضل يدفع بالرقعة الأولى التي كتبها له عمرو بن بهنوى وفيها مبلغ عشرة آلاف ألف درهم، وحدثه بما حصل بينهما، فقال المأمون: ما أدري أيكما أَكْرَمُ: عمرو حين شكر برّك وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب؟ أم أنت ومحافظتك على أهل النِّعم وسترك عليه في ذلك؟ والله لا كنتما يا نبطيَّان أكرم مني.

ودفع الرُّقعة التي أخذها محمد بن يزداد من عمرو إليّ، وأمرني بتخريقها، وتخريق الأوّلة، وأنفذ من سلّم عَمْراً من محبسه إليّ، وأمرني بإطلاقه»(٢).

بالنظر إلى هذه الأمثولة نجد أن القيمة السلبية فيها ارتبطت بالحاكم الذي استسلم للوشاية، وظَلَمَ المحكوم المتمثل في شخصيّ عمرو بن بهنوى والفضل بن مروان، ومحاولة الأخيرين من خلال تمسكهما بالأخلاق الفاضلة التي جعلت عمرو بن بهنوى يسلم كل ماله حتى يحمي الفضل بن مروان جزاءً لإكرامه له وعدم تعذيبه، والفضل يكرم عمروًا ولا يعرضه للعذاب؛ احتراماً لكونه ذا سيادة ومكانة أن يقدما حلاً للمعضلة دون أن يضر أي طرف من أطراف المشكلة (المأمون–الفضل–وعمرواً)كذلك هما من أصل واحد فكلاهما نبطيان يدل على ذلك قول المأمون: «والله لا كنتما يا نبطيَّان أكرم مني»؛ إذاً هناك الارتباط العرقي وحسن الخلق يدفعان بمجرى التوازن

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج١، ص٢٧٦.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٧.

العدلي إلى اتجاه الإنصاف وعدم الظلم، ثم نرى أن سمو أخلاق الحاكم العربي ونبله تأبى عليه أن يكون الرجلان أكرم منه، فيغفر للفضل بن مروان عدم تنفيذه لأوامره، ويطلق عمر ابن بهنوى لكونه احترم صديقه، واحترم سيادة الخليفة وقدم كل ماله ثم نصفه طاعة للأمر وشكراً لبر الصديق.

فهنا نجد خطاب الأمثولة يُعيد تشكيل القيم، فقيمة الظلم قيمة سلبية أثرت على تشكيل الحدث ثم إن قيمة الأصل العرقي (النبطيان = العربي)، والقيمة الأخلاقية المتمثلة في تعاون النبطيين، وتسامح العربي وعدله تعيد تشكيل الحدث، وتضع النهاية بحسب ما يجب أن يكون من عدل وإنصاف، فتتحطم قيمة الظلم والوشاية السلبية أمام قيم التعاون والاحترام والتسامح والعدل.

كذلك نجد أمثولات التنوخي تعزز القيم الدينية، فهو مدرك أنه يخاطب قارئاً مضطرب الفؤاد حزين الشعور؛ لهذا يبث التنوخي من خلال خطابه له ما يدخل الطمأنينة ويولد الأمل في وجدانه، حيث أن جُل هذه الأمثولات يأتي فيها الفرج محققاً بعد الشدة، وتنتهي نهاية جميلة بالخلاص من الشدائد بعد الالتجاء لله في الغالب، ثم إن متلقي الكتاب يبحث عن حل لما يواجهه من معضلات، فيوحي له التنوخي بأن الحل يكمن في التصبر والتوجه إلى الله بالاستسلام لقضائه وقدره من خلال طرح أخبار خطابها ومضمونها يشي بهذا، مثال ذلك قول التنوخي:«حدثنا علي بن الحسن، قال حدَّثنا ابن الجراح،......، قال أخبرنا أبو سعد البقال، قال: كنت محبوساً في ديماس الحجَّاج، ومعنا إبراهيم التيمي، فبات في السجن، فأتى رجل، فقال له: يا أبا إسحاق في أي شيءٍ حُبِسْتَ؟

فقال: جاء العريف، فتبرأ منيٍّ، وقال: إنّ هذا كثيرُ الصّوم والصَّلاة، وأخاف أنه يرى رأي الخوارج؟!.

فإنَّا لنتحدث مع مغيب الشمس – ومعنا إبراهيم التيمي – إذ دخل علينا رجلٌ السجنَ، فقلنا: يا عبد الله ما قصتك وأمرُك ؟

فقال: لا أدري ! ولكنّي أُخذتُ في رأي الخوارج، ووالله إنه لرأيٌ ما رأيته قط، ولا أحببته، ولا أحببت أهله، يا هؤلاء أدعوا لي بوضوء، فدعونا له به، ثم قام فصلَّى أربع ركعات، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني كنتُ على إساءتي وظلمي، وإسرافي على

نفسي، لم أجعل لك ولداً، ولا شريكاً، ولا نداً، ولا كفؤاً... »[1] إلى آخر دعائه الذي لم ينتهي منه إلاّ وقد نودي للخروج من السجن وأخلى الحجاج سبيله.

ويظهر هنا أن التنوخي ركز على قيمة دينية وهي اللجــوء إلــى الله بالــدعاء، ليجعلها في مقابل قيمة سلبية وهي الظلم، فتكون القيمة الدينية هي الغالبة بقوة وســرعة هزمت قيمة الظلم،فوظيفة خطاب الأمثولة هنا إعادة ترتيب القوى في ذهــن المتلقــي؛ لتثبت أن القيمة الدينية المتمثلة في التبصر والاستسلام لله والدعاء تظل أقوى نفوذاً مــن قوى التسلط الظالمة.

ومما سبق وجدتُ وظائف أخرى غير الإخبار والاعتبار قام بها خطاب الأمثولة الوعظية في كتاب «الفرج بعد الشدة» بعد أن تجاوزتُ النظر في لغــة الخطــاب إلــى النظر في متلقي خطاب تلك الأمثولة وسياق ثقافته وفكره ومجتمعه.

---

(١) المصدر السابق، ج١، ص١٣٧.

الخاتمة:

لقد ظهر من خلال محاولة الإجابة على تساؤلات هذه الدراسة قدرة التحليل التداولي على تعميق تأويل النص بنظرة كلية لخطابه، فالكشف عن مدلولات النص لا تكون بتحليل جزيئات لغة خطابه كجمله وعباراته فقط – وإن كان لها من الأهمية ما تؤديه في الدلالة – بل بالنظر الكلي لخطاب النص منزلاً في سياقه، مرتبطاً بمؤلفه ومتلقيه، فمن خلال هذا التعامل الكلي مع النص تظهر مدى فاعليته في إنجاح عملية التواصل بين طرفيها بصورة تحقق أهداف المؤلف دون أن يفصح عنها.

قائمة المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، عبدالله، موسوعة السرد العربي، طبعة جديدة موسعة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٨.

٢. ابن منظور، لسان العرب، ط الثالثة، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ت.

٣. بركة، فاطمة الطبال، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون–دراسة ونصوص، ط الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م.

٤. التمارة، عبد الرحمن، النص السرد التراثي بين الإنتاج والتلقي جدلية التفاعل، من أعمال المؤتمر الدولي الرابع، ط الأولى، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عَمّان، الأردن، ٢٠١٩م–١٤٤٠هـ.

٥. التنوخي، ، المحسن بن علي، الفرج بعد الشدة، د.ط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م–١٤٣١هـ.

٦. حمداوي، جميل، التداوليات وتحليل الخطاب، ط الأولى، شبكة الألوكة، WWW.ALUKAH.NET،٢٠١٥م.

٧. خضر، العادل، الأدب عند العرب سننه ووظائفه ومؤسساته مقاربة وسائطية، ط الأولى، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠١٧م.

٨. ضيف، شوقي، كتاب تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، ط الثانية عشر، دار المعارف، مصر، د.ت.

٩. القاضي، ، محمد، الخبر في الأدب العربي– دراسة في السردية العربية، ط الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م–١٤١٩ه.

١٠. القاضي، محمد وآخرون، معجم السرديات، ط الأولى، دار محمد علي للنشر، تونس،٢٠١٠م.

١١. قسومة، الصادق، علم السرد المحتوى والخطاب والدلالة، ط الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٩م–١٤٣٠هـ.

١٢. مطلوب، ، أحمد، ، معجم النقد العربي القديم،ط الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، بغداد، ١٩٨٩م.

١٣. معتصم، محمد، مناهج تحليل النص السردي، ط الأولى، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٢١م.

١٤. النجار، محمد رجب، النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية فنونه – مدارسه – أعلامه، ط الثانية، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ.